

وجود المعنى
في مؤلفات الجاحظ

حاتم عبيد

لقد اضطلع الجاحظ (٢٥٥هـ) - وهذا لما لم يساور القدامى والمحدثين من العرب وغير العرب من شأنه شك - بدور ريادي قلما اضطلع بمثله أديب آخر ، فقد كانت للجاحظ اليد الطولى والإسهام الأوفى في إمداد حضارة العربية الإسلامية بما كانت تحتاج إليه من لبنات ساعة كانت تبحث لها عن أسس متينة ومعتمد مكنين وعن وجود ومعنى . مما جعله يحظى بعناية الدارسين ويفوز بالنصيب الأوفر من اهتمامهم . فكثرت الدراسات في شأنه وبقيت العناية به مستمرة إلى يومنا هذا دون أن يعتريها فترة أو يداخلها انقطاع فضلاً عن "إقبال المستشرقين المطرد على دراسة آثاره ونقدها وترجمتها وطبعها طبعات علمية منقحة مشروحة مبوبة" ^(١) . فتكون بمقتضى ذلك "تراث" وفير من الدراسات ^(٢) يوازي ذلك التراث الكبير الذي تركه الجاحظ ^(٣) ، إذ لا يخفى أن الجاحظ - وهو المؤمن بقيمة الكتاب والداعية بحماس غير قليل إلى ضرورة التدوين - من طلائع الذين لم يدخروا جهداً في "تجميع أشتات النصوص وتقييد شوارد المعرفة الإسلامية" ^(٤) مع الحرص كل الحرص - وهو المؤمن أيضاً بضرورة المثاقفة - على الاستفادة من موروث الحضارات والإطلاع على ما أودعته الأوائل في كتبها من معارف وحكم ^(٥) . مما وسم مؤلفات هذا الرجل بترعة إنسانية وطابع كوني شمولي . فقد ضربت تلك المؤلفات في ميادين كثيرة بأكثر من سهم وخاضت في حقول معرفية

متنوعة وألّمت بأطراف من الأشياء جميعها وفازت - نتيجة ذلك كله - "بقيمة وثائقية نادرة" ^(٦) جعلتها أهلاً لأن تكون مصدراً مهماً لما جدّ في القرن الثالث من تحولات كبيرة وحركات نقل خطيرة ومستودعاً يهرع إليه الدارسون للوقوف على طلائع النصوص وأجناس الكتابة التي كانت تجري قبل الجاحظ وعلى عهده كالخطب والأمثال والنوادر والأخبار وغيرها مما لا يطاله حصر وتقييد في مثل هذا المقام. ويكفي للإبانة عن هذا الدور الذي اضطلع به الجاحظ أن يستحضر الدارس ذلك الكم الهائل من الخطب الذي توفر عليه كتاب "البيان والتبيين" حتى أضحي ذلك الكتاب لكثرة ما جمع من خطب "مصدراً من مصادر الخطب في الثقافة العربية" ^(٧) لولاه لسقط قسم كبير من تلك الخطب في دائرة الظل "ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر؛ ولما كان للمتأخرين مفرع إلى وضع استذكار" في مجال الخطبة. ولعل ذلك ما زلّن لبعض الدارسين اعتبار هذا الكتاب - متى تخفف من تلك الأحكام النقدية التي خلله بها الجاحظ - مختارات أدبية ^(٨).

ولما تعددت مؤلفات الجاحظ تعددت المواضيع التي تدور عليها والمشاغل التي تقع في دائرتها، فقد كثرت مواطن اهتمام الباحثين أثناء إقبالهم على الجاحظ بالدرس وتفرقت شعب القول فيه وتنازعت أدبه وفكره اختصاصات جهة بعضها يدخل في دائرة الدراسات الحضارية وبعضها الآخر يقع في نطاق تاريخ الأفكار وقسم منها له صلة بالفلسفة وثيقة وآخر علاقته بالدين عميقة. فنشأ عن ذلك جملة من القضايا المتداولة كالإهتمام بالترعة العقلية في فكره أو الواقعية في فنه أو الكونية في مؤلفاته أو الكلامية الجدلية في نشره

كما ألفينا دراسات أخرى اهتم أصحابها فيها بدراسة خصائص الجملة الأدبية في نشر الجاحظ فبينوا ما تميز به نشره في وجوه فنية وأشادوا بما اضطلعت به كتبه من جليل الأدوار في ظهور النشر الفني عند العرب مما جعل " مؤلفاته مصدراً للإنشاء الأدبي الحي ومدرسة في النشر قائمة برأسها نسج على صورتها أشهر أعلام النشر العربي بعده " ^(٩)، وأشاروا إلى ما يتسم به خطابه من تعدد ^(١٠) إشراقهم إلى تنوع الأجناس فيه . " فالشائع أن بعضها - أي تلك الأجناس - ينتمي إلى فن النوادر وأن جانباً منها في الأخبار الأدبية وأن طائفة ثالثة في الرسائل ورابعة تقوم على الخطاب الجدالي الاحتجاجي " ^(١١) . ووجدنا إلى جانب هذه الدراسات دراسات أخرى صرف أصحابها العناية فيها إلى ما أبداه الجاحظ في " حيوانه " و " بيانته " و " رسائله " من ملاحظات ماثلة ولعل متفرقة تأتي في أغلب الأحيان على غير نظام وعلى غير انتظار وتدور على كفيات القول وطرائق التعبير شعراً ونثراً كان لها كبير المساهمة في تأسيس البلاغة العربية مما جعل مؤلفاته - متى نظرنا إليها من هذه الزاوية - " أهم مرجع لعلماء البلاغة بعده تشير إليه وتنقل عنه وتشيد بفضلها فكانت هذه المؤلفات بمثابة الذاكرة التي حفظت لنا أطوار هذا العلم الأولى وفتحت السبيل إليها كما حملت ملامح ما تلاها وتولد عنها " ^(١٢) .

ولاشك أن في كثرة الكتابات واختلاف المناحي وزوايا النظر بركة وخيراً واعترافاً يسبق فضل ووفاء لكبير دين . إلا أن الكثرة متى لم تعقبها محاولات تأليفية قد تضر أحياناً لاسيما إذا ما انفتح باب التمجيد والرجم بالغيب فتضيع في زحمة الأقوال والآراء أمهات القضايا . كما أن تعدد النصوص الوسائط قد يصرف

التذكير بأننا لا نجعل من وكدنا ومدار اهتمامنا في هذه القراءة - محاولة الظفر بالأفكار التي عرضها الجاحظ في مؤلفاته والقضايا التي أثارها فيها ولا نبحت في مذهب الرجل الكلامي ووجوه صلة فكره بأهل الاعتزال ومدى صحة القول في المدرسة الكلامية التي نسبت إليه كما أننا لا ننشد التحقيق فيما قدمه الجاحظ من " نظريات " حول الطبيعة والحيوان ومقارعتها بما وصل إليه العلم الحديث أو بما أورده أرسطو في كتاب الحيوان^(١٥). وإنما اهتمامنا سينصرف - أول ما ينصرف إلى الآليات التي تنتج تلك المؤلفات وتوجه فعل الكتابة وتكيف بنية الآثار وسيرورة الأفكار وتسهم - إسهاماً غير قليل - في تفسير جنوح الجاحظ في جلّ مؤلفاته إلى الاستطراد وقطع الاسترسال والخروج عن الموضوع وذكر الشيء بالشيء وجعل الكتابة كالحديث ذات أشجان وأفنان لا تستقر عند موضوع ولا تثبت على وضع مما جعل " الاستطراد أساس منهجه في التأليف حتى عرف به دون سواه"^(١٦). ولعلّ الذي زيّن هذا الوجه من القراءة أمران في كتابة الجاحظ وقف الدارسون عندهما وأجمعوا على كونهما من خصائص نشره ولوازمه : أمر أول يتصل بما كنا منه بسبيل ونعني بذلك سمة الاستطراد التي تأوها أكثر من دارس على أنها علامة قصور تنبئ بعود الجاحظ عن السيطرة على مادة مؤلفاته وانفلات تلك المادة منه وعجزه عن إحكام تبويبها وإخراجها في هيئة منظمة^(١٧). وأمر ثان يتمثل فيما أبداه فريق عريض من الدارسين من ملاحظات متشابهة - دون أن يدفعوا بها أو يعملوا على تطويرها - تتصل بطغيان النزعة الحجاجية في كتابات مقارني بين التوحيدي والجاحظ قائلاً :

فالجاحظ قدير على الجدل وإبطال الحق وإحقاق الباطل وتزوين القبيح وتقبيح الحسن بما يستخدم من مقدّمات منطقيّة وأدلة خطابية وتمويه ماهر في تأييد دعوى أو إثبات قضية أو نقض فكرة ". ليستنتج الباحث على إثر هذا الكلام استنتاجاً متسرّعاً ويقول : " ومن هنا كثيراً ما يدافع عن آراء لا يدين بها ثم ينقضها ولهذا كثر تناقضه" (١٨).

وما كان هذا الباحث ليقع في مثل هذا الخطأ فيجعل من الجاحظ مفكراً كثير التناقض إلاّ لأخذه بالنظرة الجزئية وعدم محاولته الوصل بين مؤلفاته . ولو تم له - ولغيره من الذين حملوا الاستطراد على أنه ضعف في المنهج - ذلك لتبين القوم أن مؤلفات الجاحظ - وبهمننا منها في هذا المقام كتاب الحيوان وكتاب البيان والتبيين - تجري إلى غاية واحدة وتنافح عن أطروحة أم ثابتة تتمثل في ربط الوجود بالمعنى وإكسابه دلالة " (١٩) . وجعل كلّ موجود فيه - كبر شأنه أم حقّر ، حسن منظره أم قبح - دالاً على حكمة الخالق التي بثّها في مخلوقاته . فذلك بشهادة الجاحظ " هو أصل المقالة والقطب الذي تدور عليه الرحي" (٢٠) . والسبب الداعي إلى جمع ما جمعه من نصوص . يقول الجاحظ مبيّناً وجه الحكمة من عقد مناظرة بين الديك والكلب والاستفاضة في ذكر محاسن كل واحد منهما وعيوبه : " ألا ترى أنّ الجبل ليس بأدل على الله تعالى من الحصة ... والنار والثلج وإن اختلفتا من جهة البرودة والسخونة فإنهما لم يختلفا في جهة البرهان والدلالة " (٢١) . فإذا بالكون - وفق تصوّر الجاحظ - كتاب مفتوح تشهد كل صفحة وكلمة فيه على وجود الصانع . وإذا بكتاب الحيوان - وهو كتاب ضخم أقبل فيه الجاحظ على تصنيف الحيوانات

وقسمها أقساماً وفق مقاييس متعددة وتحدث فيه عن طباعها وعجائب خلقها مستنداً في ذلك إلى الشعر أحياناً وإلى معارف عصره طوراً وإلى علوم الأوائل طوراً آخر - كانت الغاية من وراء وضعه وإنفاق العمر في جمعه بيان وجه من الوجود المؤدية إلى معرفة الخالق الذي هو غاية كل معرفة ونهاية كل تفكير مهما كان مدار تلك المعرفة وموضوع ذلك التفكير . لذلك فلا عجب أن نصادف الجاحظ يدخل الحديث في المفاضلة بين الديك والكلب على ما يبدو فيه من تفاهة وإسفاف في دائرة علم الكلام مدافعاً في عطف غير قليل - عن شيخين من شيوخ المعتزلة يخوضان في ذلك الحديث قطعاً السبيل أمام كل شاكّ تسول له نفسه بالإزراء بدينك الشيخين والسخرية مما يبذلانه من طاقة في ذلك الموضوع . فإن قال قائل: " وأي شيء بلغ من قدر الكلب وفضيلة الديك حتى يتفرغ لذكر محاسنهما ومساوئهما والموازنة بينهما والتنويه بذكرهما شيخان من عليّة المتكلمين ومن .. المتقدمين وعلى أنّهما متى أبرما هذا الحكم وأفصحوا بهذه القضية صار بهذا التدبير بهما حظاً وحكمة ... وسيعود ذلك عذراً لهما إذا رأيتهما يوازيان بين الذباب ونبات وردان " . أو قال : " هذا باب من أبواب الفراغ وشكل من أشكال التطرف وطريق من طرق المزاح وسبيل من سبل المضاحك ورجال الجد غير رجال الهزل وقد يحسن الشيء بالشاب ويقبح مثله من الشيخ " (٢٢) . اعتبر الجاحظ هذا الكلام ونحوه صادراً عن " عبد لم يفهم عن ربه ولم يعقل عن سيده إلاّ بقدر فهم العامة أو الطبقة التي تلي العامة " (٢٣) . مبيّناً بعد عشرات الصفحات من هذا الكلام اتجاهه وهدفه من البحث

في الحيوان ومن الخوض في الدّيك والكلب ومقصوده من " قدرهما " وهو ما عبّر عنه قوله الذي ورد صريحاً لا يحتمل أكثر من تأويل : "فليس لقدّر الكلب والدّيك في أنفسهما وأثماهما ومناظرهما ومحلسهما من صدور العامة (..) ولسنا نقف على أثماهما من الفضة والذهب ولا إلى أقدارهما عند الناس وإنما ننظر فيما وضع الله عزّ وجلّ فيهما من الدلالة عليه وعلى إتقان صنعه وعلى عجيب تدبيره وعلى لطيف حكمته وفيما استخرج لهما من عجائب المعارف وأودعهما من غوامض الإحساس (..) ودلّ بهما على أن الذي ألبسهما ذلك التدبير وأودعهما تلك الحكم يجب أن يفكر فيهما ويعتبر بهما ويسبح الله عز وجل عندهما " (٢٤). وعلى هذا النحو ولأجل هذه الغاية ينبغي أن يحمل نظر الجاحظ في سائر الحيوانات سواء صرح بتلك الغاية (٢٥) أم لم يصرح . ولأجل هذه الغاية أيضاً يجب أن نفهم تلك المقدمة الطويلة التي صدر بها الجاحظ كتاب الحيوان وأفاض فيها في مزايا الكتاب فكان منتصراً له مبرراً فضائله منادياً بضرورة قيامه " بديلاً حضارياً عن اللفظ والذاكرة " (٢٦). فهذه المقدمة وما ورد فيها من دفاع عن الكتاب تبقى - فضلاً عما تحمله من دلالات حضارية بعيدة أبان عنها حمادي صمود (٢٧) وكشف مستورها ووصل بها ما كان يبدو من تنافر في فصولها - موصولة بالأطروحة الأم التي تسعى مؤلفات الجاحظ - ولاسيما كتاب الحيوان منها - إلى الدفاع عنها والتمكين لها . ونعني بتلك الأطروحة كما أسلفنا إنطاق الموجودات بحكمة الباري كما ورد ذلك على لسان الجاحظ في مواضع كثيرة لعل أظهرها ما ورد في بداية الجزء السابع . فعبد أن ذكر الجاحظ

قارنّه بمحتوى الأجزاء السابقة ذكره بالغاية التي تجري إليها تلك الأجزاء وهذا الجزء والأجزاء التي تليه قائلاً : " قد كتبنا من كتاب الحيوان ستة أجزاء وهذا الكتاب السابع وهو الذي ذكرنا فيه الفيل بما حضرنا من جملة القول في شأنه وجملة أسبابه والله تعالى الموفق . وإنا اعتمدنا في هذا الكتاب على أخبار ما في أجناس الحيوان من الحجج المتظاهرة وعلى الأدلة المترادفة وعلى التنبيه على ما خلقها الله تعالى من البرهانات التي لا يعرف حقائقها إلا من الفكرة وغشاها من العلامات التي لا تنال منافعها إلا بالعبرة " (٢٨).

وهذا ما يجرؤنا على القول بأن وراء إشادة الجاحظ بالكتاب وترغيبه في اصطناعه واحتجاجة على من يزري بواضعه - تصوراً يرى في الكتاب قدرة عجيبة تفوق قدرة المواجهة على درك البغية وإصابة الحجة والكشف عن مواضع الدلالة . إذ الكتاب - في رأي الجاحظ - أبلغ في إرشاد الناس وأقدر على هدايتهم إلى الحق وأكثر استطاعة على التمكين للدعوة . لأن الإنسان متى انفرد بالكتاب ساعة قراءته انكشفت له المعاني وانصبت أمام ناظره بينة جلية لا يفصله عنها فاصل ولا يحول دون إدراكه إيّاها حائل . فما يجعله مهياً لفهمها مستعداً لتصديقها فلا عناد ولا مغالبة ولا تمسك بالرأي كما يحدث عند المواجهة والمقابلة حيث يعزّ على المرء - لقيام خصمه قبالة - لحظة متعقّلة ينفرد فيها المرء بالمكتوب وينتصر فيها العقل (ethos) على العواطف (pathos) ولا تعمى فيها القلوب والأبصار . يقول الجاحظ موضحاً ذلك : " على أن قراءة الكتب أبلغ في إرشادهم من تلاقيهم إذ كان مع التلاقي يشتد التصنع ويكثر

التَّظالم وتفرط العصبية وتقوى الحمية . وعند المواجهة والمقابلة يشتد حب الغلبة وشهوة المباهاة والرياسة مع الاستحياء من الرجوع وأنفة من الخضوع . وعن جميع ذلك تحدث الضغائن ويظهر التباين . وإذا كانت القلوب على هذه الصفة وعلى هذه الهيئة امتنعت من التعرف وعميت عن مواضع الدلالة . وليست في الكتب علة تمنع من درك البغية إصابة الحجة لأن المتوحد بدرسها والمنفرد بفهم معانيها لا يباهي نفسه ولا يغالب عقله وقد عدم من له يباهي ومن أجله يغالب" (٢٩) .

ولعل ما يزيد من وجاهة الرأي الذي ذهبنا إليه عندما عقدنا الصلة بين إشادة الجاحظ - في مقدمة حيوانه - بالكتاب والغاية التي تجري إليها مؤلفاته والمتمثلة في الاستدلال على الباري أنه - بعد أن ذكر ما لكتب الأوائل من فضل في صيانة حكمهم وتحليل سيرهم وحفظ معارفهم من التلف والتسيان وإنفاذها إلى الأمم اللاحقة للإطلاع عليها والإستفادة منها - انتهى إلى تفضيل كتب الله تعالى عليها لما فيها من هدى ورحمة وآيات بينات وأدلة ساطعة وحق أبليج مبين . يقول الجاحظ : " وأكثر من كتبهم نفعاً وأشرف منها خطراً وأحسن موقعاً كتب الله تعالى التي فيها الهدى والرحمة والإخبلو عن كل حكمة وتعريف كل سيئة وحسنة . وما زالت كتب الله تعالى في الألواح والصحف والمهارق والمصاحف " (٣٠) . ولا شك أن ذلك كله راجع إلى تلك النظرة الدّينة التي يقيم الجاحظ عليها فكره والتي تعتبر كل ما في الكون من موجودات علامات منصوبة ودوال قائمة متى تأولها الإنسان وتعلّلها اهتدى إلى مدلولها ومغزاها وعرف معناها ومآلاتها . ولذلك سَمّى الجاحظ الإنسان دليلاً مستدلاً " يشارك سائر

المخلوقات من حيوان ونبات وجماد من جهة ما يحمله من حكمة ويختلف عنها " من جهة الإدراك والتعقل والقدرة على الفهم والتأويل" ^(٣١). بما مكنه الله من أسباب وآلات يدلّ بها على وجوه استدلاله ووجوه ما نتج له الاستدلال من لفظ وخطّ وعقد وإشارة وبما وقر له من أدلة تمكّنه من نفسها واقتيادها واستنطاقها واستخبارها للظفر بكنه المعنى وأصل المغزى. وهذا ما عناه الجاحظ بقوله " واجتمع للإنسان بأن كان دليلاً مستدلاً ثم جعل للمستدل سبب يدل على وجوه استدلاله ووجوه ما نتج له الاستدلال وسمّوا ذلك بياناً وجعل البيان على أربعة أقسام : لفظ وخطّ وعقد وإشارة وجعل بيان الدليل الذي لا يستدلّ تمكينه المستدلّ من نفسه واقتياده (...) فالأجسام الخرس الصامته ناطقة من جهة الدلالة ومعربة من جهة صحة الشهادة على أنّ الذي فيها من التدبير والحكمة مخبر لمن استخبره وناطق لمن استنطقه" ^(٣٢). فالله قد أودع حكمته في موجوداته ووضع دلالاته في خلقه وزاد على ذلك بأن بيّن للإنسان السبل الموفية إلى تلك الحكمة والطرائق المؤدية إلى هذه الدلالة وحثّه على التفكير ورغبه في النظر وعلى الإنسان إلا أن يكون عاقلاً بصيراً. وهذا ما عناه الجاحظ بقوله " فافهموا هذا التدبير وتعلّموا هذه الحكم (...) فإن الله عزّ وجلّ لم يردد في كتابه ذكر الاعتبار والحث على التفكير والترغيب في النظر والتثبت والتعرّف إلاّ وهو يريد أن تكونوا علماء من تلك الجهة حكماء من هذه التعبئة . ولولا استعمال المعرفة لما كان لوضع الدلالة معنى" ^(٣٣).

فهم الجاحظ والغاية التي يرمي إليها أن يبيّن كيف أنّ

الموجودات.. تستوي من حيث دلالتها "على قدرة الباري سبحانه وتعالى على إتقان صنعه وعجيب تدبيره ولطيف حكمته"^(٣٤). حتى يجعل كل موجود.. يحمل معنى وينهض بوظيفة ويختزن حكمة.. ويسلم الإنسان أي ذلك الدليل المستدل الذي..."^(٣٥) متى نظر في تلك الموجودات واعتبر بها.. إلى استخلاص الحكمة والظفر بالمعنى. وراء ذلك تصوّر للحقيقة / المعنى ولكيفية إدراك الإنسان لها ووقوفه عليها وتحصيلها.. من "علامات نيرات" و"حجج واضحات"...

إنّ فعل التعقل والنظر في عالم الحيوان العجيب الذي يدعو الجاحظ إليه هو بمثابة فعل القراءة والفهم الذي يمكن القائم به من امتلاك المعنى وتحصيله " لتحقيق الوجود والفوز بلذة التملك . فالفهم امتلاك للمعنى وبامتلاك المعنى يمتلك القارئ طاقة وقدرة تمكنه من تحقيق وجوده "^(٣٦). ولم يخل كتاب " البيان والتبيين " بدوره - رغم دورانه على مسائل قد تبدو للنّاظر العجل بعيدة كل البعد عن هذه الغاية الحجاجية والدفاع عما سميانه "بالأطروحة الأم". إذ البيان في أهم معانيه هو طرائق التعبير عن المعنى والمسالك الموفية إليه والكاشفة لستره . والمعاني - متى لم تتكفل الألفاظ والإشارات والعقود والخطوط وأدائها وبيانها والإعراب عنها - كانت في عداد المعلوم خفية غائبة بعيدة . من ذكر لها وإخبار عنها وجعلها قريبة من الأذهان متجلية للعقول - من ذكر لها وإخبار عنها وإشاعة لها . فبالبيان تُستخلص تلك المعاني ويوقف عليها . ولولا البيان بمختلف أصنافه لما كان لوضع الدلالة معنى . لذلك فقد أمّد الله الإنسان

المستدل بأسباب يدل بها " على وجوه استدلاله ووجوه ما نتج له الاستدلال " (٣٧). ولذلك أيضاً فإن بيان النصفة المتمثل في " الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيئة بغير اليد " - وإن أكد الجاحظ على أنها "تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقصر عن تلك الدلالات" (٣٨) التي يعني بها اللفظ والإشارة والعقد واللفظ - يبقى دون الأصناف الأربعة المذكورة فهي لا تنطق إلا من جهة الدلالة دون أن يؤدي دليل معناها وتبقى محتاجة إلى من يستنطقها وينطق صمتها ويفهم (٣٩) معناها . ولا موجب لإدخالها ضمن أصناف البيان ولا مبرر لتسويتها باللفظ وغيره من وجوه البيان إلا حرص الجاحظ على إنطاق الصمت (٤٠) الذي يكتنف الوجود والكائنات وإكسابه معنى حتى لا يكون رهيباً مفرعاً وحتى لا تكون الطريق إلى الله موحشة قفراً لا هادي فيه ولا دليل . ولعل هذا ما قصد إليه الجاحظ نقلاً عن بعض الخطباء حين قال " أشهد أن السموات والأرض آيات وآلات وشواهد قائمات كل يؤدي عنك الحجة ويشهد لك بالربوبية موسومة بآثار قدرتك ومعالم تدبيرك التي تجليت بها خلقتك فأوصلت إلى القلوب من معرفتك ما أنسها من وحشة الفكر ورجم الظنون فهي على اعترافها لك وافتقارها إليك شاهدة بأنك لا تحيط بك الصفات ولا تحددك الأوهام " (٤١).

فالجاحظ مهتم بالمعنى اهتمامه بكيفيات أدائه ووجوه بيانه . وليس من باب المصادفة ومحض الاتفاق أن يكون باب أقسام البيان من أول الأبواب في كتاب " الحيوان " وأن يستدرك الجاحظ على نفسه في كتاب " البيان والتبيين " عندما قدّم باب " عيوب البيان "

على باب " أصناف البيان " قائلاً : " وكان في الحق أن يكون هذا الباب في أول هذا الكتاب ولكننا أخرنا لبعض التدبير " (٤٢). مما يؤكد أن غاية المؤلفين واحدة . فهما يصدران عن نفس الهاجس ويرميان إلى نفس الغرض فضلاً عما يشير إليه ذلك من أهمية هذه المسألة لدى أبي عثمان وحلولاها في مشروعه محل الأصل الذي تتولد عنه الفروع. فالمعاني مكنونة محجوبة يحتاج الإنسان - لإظهارها والإهداء إليها - إلى أدلة يحتزها الجاحظ في البيان . فهو " اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير " (٤٣). فالمعنى - ... في متصور الجاحظ هو معنى المعنى - يدفع الباحث عنه والراغب في الوقوف عليه إلى خرق السخف وهتك الحجب الحائلة دونه . والذي يجمع بين الجاحظ البليغ الذي جمع المادة البلاغية وفكر فيها واستخلص منها شروط البلاغة وفصاحة الكلام وما به يفلح الخطيب في التأثير على السامعين وما به يبلغ المتكلم مراده وما به يحسن الشعر والكلام عامة (٤٤)، والجاحظ العالم الذي أخذ بأسباب البحث التجريبي واتخذ الشك طريقاً إلى الحقيقة . هو ذلك السعي الدائب والحرص الدائم على الاستدلال والبرهنة على ذلك المعنى السرمدى وبيان وجوه الاهتداء الموفية إليه .

ومثلما كانت الأخبار والأشعار والأدلة التي ساقها أبو عثمان عن الحيوان والتجارب التي أجراها على طائفة منها تصب في الشهادة على.. الكون فإن قسماً كبيراً من الخطب الدينية التي يرمي أصحابها إلى الإقناع بالدين الحق والدعوة إلى التوحيد والإيمان بالبعث " وتقرير حجة الله في عقول المكلفين " على حد عبارة الجاحظ نفسه.

فكان من تلك الخطب خطب للرسول (صلى الله عليه وسلم) ومواعظه وأخرى لصحابته والتابعين لهم بإحسان وثالثة لقس بن ساعدة الذي أرجع الجاحظ إفلاحه في فن الخطابة واستمالته السامعين ورواية الرسول عنه "وإعجابه من حسنه" إلى توفيق رباني وذلك لاحتجاجة للتوحيد ولإظهاره معنى الإخلاص وإيمانه بالبعث ، ولذلك كان خطيب العرب قاطبة " (٤٥) ، ولأريب أن ارتباط الخطابة بالدين وتحولها أداة لنصرة الملة وإقامة الحججة وإبطال دعوة الخصوم هو الذي يقف خلف سعي الجاحظ إلى جمع تلك الخطب وهو الذي قاد عمرو بن عبيد على ما رواه الجاحظ إلى تعريف البلاغة رداً على سؤال وجه إليه بأنها " ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار وما بصرك مواقع رشك عواقب غيك " (٤٦) .

إن الاحتجاج ... والإستدلال ، هو الإطار الحجاجي الكبير الذي نراه أهلاً بأن تترل فيه مؤلفات الجاحظ - وقد وقفنا عند بعضها - رؤيتنا ضرورة تقديم الوعي بذلك والوقوف عنده قبل أن نستجلي طرائق الحجاج وأساليبه في نصوص نقتطع من مؤلفات أبي عثمان وقبل أن نقدم على أي قسمة كانت لتلك المؤلفات والقضايا التي تثيرها والدلالات التي تعلق بها . لأن تلك القسمة لو تمت في غياب ذلك الوعي - وهذا ما حدث في كثير من الدراسات - لضيعنا على أنفسنا فرصة الإمساك بخيط جامع ولانسقنا في إصدار أحكام قد يكون الجاحظ وعصره منها بريئين ، فتشتت الجهود وتختلف الدراسات وتتضارب الآراء وينشأ في أذهان الناس غموض غير قليل وهم يقبلون على دراسة الجاحظ فيسمعون حديثاً مختلفاً عن

المترع العقلي والمنهج العلمي .. والجانب البلاغي وإلى غير ذلك من المسائل دون أن يحصل لديهم الوعي بما يجمع تلك القضايا ويوحد هاتيك التآليف . فكتب الجاحظ - وهذا رأي يمكن أن نبديه بنفس راضية مطمئنة - يمكن أن تحمل على أنها فعل حجاجي وعمل قولي أكبر (Un Maximum acte de parole) واستدلال على حكمة .. ووجود المعنى باعتبار أن الاستدلال قول يعبر عن لزوم شيء عن شيء نتيجة بناء القول على مقدمات ينشأ عن التآليف بينها نتيجة ملزمة فالمقدمة الكبرى : في خطاب الجاحظ في كتابه الحيوان :

كل ما هو منظم منسق في حاجة إلى منظم .

المقدمة الصغرى : هذا الكون في منتهى التنظيم .

النتيجة : لا بد أن يكون لهذا الكون إله مدبر إذ لا يعقل أن تكون الدقة والنظام سليلتي المصادفة ومحض الاتفاق .

وهناك نتيجة أبعد والمتمثلة في إلزام مستخلصها بالإعتقاد في هذا الصانع . مما يجعل خطاب الجاحظ خطاباً حجاجياً بامتياز ينشد التأثير في أهل زمانه وإنتاج التصديق لديهم . إذ غاية الحجاج في مشهور التعريفات " أن يجعل العقول تدعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان " (٤٧) . ويتم ذلك من خلال اعتماد جملة من الأساليب تقود إلى إذعان المتلقي للقضايا المعروضة وعبر بناء الخطاب وتكثيف الحجج فيه على نحو لا يجد المتلقي أمامه إلا بنتيجة واحدة يستخلصها بنفسه من الخطاب المعروض عليه ولا يسعه إلا أن ينقاد لها ويصدق بها . إذ لا يخفى أن النتائج التي يوكل أمر استنباطها إلى المخاطب تكون ألزم له بالحجة وأكثر تأثيراً فيه حتى لكان الحجج

تحاصره فلا يملك فكاً كما منها . وهذا ما يظهر في تصدير الجاحظ حديثه عن الفيلة وما فيها من عجب التركيب قائلاً : " وأنا ذاكر ما جاء في الفيلة من عجب التركيب (..) وما جعل الله فيها من البرهانات والعلامات النيرات التي جلاها لعيون خلقه وعرف بينها وبين عقول عباده وقيدها عليهم وحفظها لهم ليكثر لهم الأدلة ويزيدهم في وضوح الحجة ويسخرهم لتمام النعمة " (٤٨) . مما يوضح أن الجاحظ حريص على تكثيف الأدلة والتنويع فيها والإكثار منها حتى يقطع الطريق على كل جاحد ويسلم بخطابه كل ناكر .

فإذا وقرت هذه الأطروحة الأم التي عقد الجاحظ مؤلفاته على إثباتها والإحتجاج لها بشق السبل فهمنا الأسباب التي تقف وراء هيمنة النزعة الجدلية على مؤلفاته ، والدواعي التي تفسر غلبة المنزع العقلي على فكره ، وأدركنا سر إقباله على جمع الخطب التي كانت تنهض بأدوار بارزة في تأليف القلوب على الدين الحق أكثر من إقباله على جمع الأشعار ، وعرفنا أسباب إثارة بلاغة الكلام على بلاغة الصمت والإحتجاج لذلك في صفحات عديدة من "البيان والتبيين" فضلاً عن رسالته الموسومة " بتفضيل النطق على الصمت " (٤٩) ، واستطعنا أن نصل ذلك كله بالدور الذي أُنيط بعهدة الجاحظ ورفاقه من المتكلمين .. وكان عليهم .. مناظرة أصحاب الديانات غير الإسلامية .. الذين أضحووا بفعل الفتوحات في فناء دار الإسلام - بمنهج عقلي مقبول . ذلك أن قسماً من قضايا علم الكلام كان الباعث إلى إثارتها عدداً من الأدلة .. والخصومات الفكرية والسياسية بين المسلمين وقسم آخر من مسائل ذلك العلم كان المتسبب في إثارتها أصحاب الملل الأخرى مما جر علم الكلام

إلى أن يكون استدلالاً عقلياً على مقولات ومبادئ شتى . ولأريب أن جعلنا بعض هذه الأمور بسبب من بعض سيمكتنا من التعرف إلى الأسباب التي جعلت أبا عثمان حريصاً أكثر من مرة على وصل البلاغة بالمقارعة والحاجة وسبل الظهور على الخصم وإقناعه بالرأي كما يظهر ذلك في قوله نقلاً عن بعض أهل الهند " جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة " ^(٥٠) . والأسباب التي جعلت اهتمامه منصرفاً إلى السامع وما يسلكه من طرائق في الإبانة والإفهام أكثر من انصرافه إلى المتكلم وبنية الكلام " . فمدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام " ^(٥١) . كما سيمكتنا ذلك من التعرف إلى نمط من الأسباب وإدراك الغاية البعيدة التي عقد عليها الجاحظ مؤلفاته حتى تكون على مرأى من الإنسان ويكون الإنسان على بينة منها .

إن الجاحظ - وهذا ما يمكن أن نخلص إليه ونختتم به - كان - في كل ما كتب وعلى اختلاف ما جمع من نصوص - يبحث عن المعنى ويسعى إلى بيان وجوه الاستدلال الموصلة إلى الظفر بالمعنى بداية من المعاني الدائرة في خلد الإنسان والتي لا يروم إبلاغها إلى شقيقه الإنسان وصولاً إلى ذلك المعنى الأبعد .. الذي أشكل على الإنسان . فإذا كان المعنى بعبارة دقيقة مختزلة هو " فهم شيء من شيء واستخلاص أمر من أمر " فإن الجاحظ أراد أن يوقفنا على تلك الأشياء .. التي نستخلص بها .. نتائجها، وأن يعيننا على معرفة وجوه الاستدلال والاستخلاص ويبين لنا عجائب مخلوقات الله .. واتقان صنائعه في الكون ، ومختلف نباتاته وجماداته ونظامه الذي لا ندركه وجهازه المنسق - علامات بارزة وحجج شاهدة وبراهين قائمة

وأمارات منصوبة كبرى لذلك المعنى .. البعيد . ولعل هذا يسلمنا إلى القول - عوداً على ما كنا أسلفناه في تقديمنا هذا العمل - أن المعتمد الذي كانت الحضارة العربية الإسلامية - ساعة تأسيسها - شاهداً عليه .. هو المعنى على أيدي بنائها وروادها .

الهوامش

- (١) جميل جبر : الجاحظ في حياته وأدبه وفكره : الشركة العالمية للكتاب - لبنان (د.ت) ص : ٣ .
- (٢) من الأمارات الدالة على أن ما كتب عن الجاحظ بدوره بمثابة التراث الغزير إشارة أغلب الدارسين في هذا العصر إلى غزارة ما يكتب عن الجاحظ ومحاولتهم في مقدمات دراساتهم تصنيف تلك الكتابات وبيان مواطن اهتمامها واختلاف مشارها . انظر على سبيل المثال : إدريس بلمليح : " الرؤية البيانية عند الجاحظ " ، دار الثقافة : المغرب ١٩٨٤ ص ص - ٢٤ وصالح بن رمضان " أدبية النص النثري عند الجاحظ " مؤسسة سعيان للطباعة والنشر تونس ١٩٩٠ ص ص : ١ - ٤ .
- (٣) من المحاولات الجادة التي عنى أصحابها فيها بإقامة ثبت في مؤلفات الجاحظ نذكر محاولتين قام بهما شارل باللا الذي كاد يختص الجاحظ بأكثر جهوده ودراساته صدرت الأولى سنة ١٩٥٦
- ch. Pellat : Essai d'inventaire de l'oeuvre "gahizienne in Arabica" N° 3 - 1984**
- وظهرت الثانية بعد ذلك التاريخ بثلاثين عاماً وكانت أشمل وأكمل .
- Ch. Pellat : Nouvel Essai d'oeuvre "in Arabica" N° 3 - 1984.**
- (٤) حمادي صمود : " التفكير البلاغي عند العرب " منشورات الجامعة التونسية ١٩٨١ ص : ١٤٢ .
- (٥) يقول الجاحظ في نص - أمسى لفائق قيمته وعظيم دلالاته - معروفاً : " ولوا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها وخلدت من عجب حكمتها ودونت من أنواع سيرها حتى شاهدنا لها ما غاب عنها وفتحنا لها كل مستغلق كان علينا فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم لما حسن حفظنا من الحكمة ولضعف سببنا إلى المعرفة ولو لجأنا إلى قدر قوتنا ومبلغ خواطرننا ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسنا وتشاهده لقلت المعرفة وسقطت الهمة وارتفعت العزبة وعاد الرأي عقيماً والخطا فاسداً ولكلّ الحد وتبلد العقل " الحيوان تحقيق عبد السلام محمد هارون مكتبة دار الجبل بيروت ١٩٩٢ ج ١ ص ٣٢ .
- (٦) حمادي صمود : " التفكير البلاغي عند العرب " ص : ١٤٣ .
- (٧) حمادي صمود : " القوانين البلاغية ومقولة الجنس الأدبي " ضمن كتاب : " مشكل الجنس الأدبي في الأدب العربي القديم " منشورات كلية الآداب متونة تونس ١٩٩٤ ص : ٣٠٩ .
- (٨) حمادي صمود : " التفكير البلاغي عند العرب " ص : ١٥٤ .
- (٩) المرجع السابق : ص ١٤٤ .

وجود المعنى في مؤلفات الجاحظ

- ١٠) محمود الصفار : " بخلاء الجاحظ بين تعدد الخطاب وخطاب التعدد " تونس ١٩٩٨ .
- ١١) صالح بن رمضان : " أدبية النص النثري عند الجاحظ " ص : ٣ .
- ١٢) حمادي صمود : " التفكير البلاغي عند العرب " ص : ١٥ - ١٦ .
- ١٣) يكفي للإبانة عن ذلك أن نذكر بانخراط الدراسات التي أنجزت في منتصف هذا القرن في المنهج التاريخي الذي يعمله شارل باللا أحسن تمثيل ثم ظهر صف آخر من الدراسات يهتم ببنية النادرة ومقومات القص في كتاب البخلاء جاء على إثرها ما شهدته المباحث السردية من تطور وهناك اليوم اهتمام متزايد بأساليب الاحتجاج في مؤلفات الجاحظ لاشك أن الباعث إليه ما يحتله مبحث الحجاج اليوم من عناية كبيرة .
- ١٤) حمادي صمود : القوانين البلاغية ومقولة الجنس الأدبي ص : ٣٠٧ - ٣٠٨ .
- ١٥) انظر في هذا الشأن : علي بو ملحم : " المناحي الفلسفية عند الجاحظ " ص : ٨٠ - ٩٤ ويمكن أن نسوق ما أورده شارل باللا في لمة لا تخلو من تمجيد وإسراف غير قليل حيث قال " فتجد مثلاً في هذه الموسوعة آراء عجيبة غريبة لا يكاد ينكرها المعاصرون في تطور الأنواع وتأثير الهواء والتربة في خلق الإنسان والحيوان وخلقهما وطباع الحيوان وغير ذلك مما غاب عن أرسطو ولم ينتبه إليه علماء الغرب إلا في المعصور الحديثة " أصالة الجاحظ " ضمن كتاب " الجاحظ " ترجمة إبراهيم الكيلاني دار الفكر ط ١ ، ١٩٨٥ ص : ٣٧٤ ويكفي لبيان ثقافت هذا الرأي أن نذكر ما أورده جميل جبر قاتلاً " والواقع أن مباحث الجاحظ العلمية وأخصها الحيوان لم يبق لها اليوم شأن كبير على الصعيد العلمي : " الجاحظ في حياته وأدبه وفكره " ص ٣٣ .
- ١٦) حمادي صمود : " التفكير البلاغي عند العرب " ص : ١٤٣ .
- ١٧) عبدالسلام المسدي " قراءات مع الشابي والمتنبى والجاحظ وابن خلدون " الشركة التونسية للتوزيع تونس ١٩٨٤ ص : ٩٩ - ١٠٣ ومن المحاولات الجادة التي سعى أصحابها إلى البحث عن وحدة تنظيم مؤلفات القدامى نذكر محمد مفتاح : " من الفوضى إلى النظام انتظام البصائر " . مجلة فصول مجلد ١٤ عدد ٣ - ١٩٩٥ .
- ١٨) أبو حيان التوحيدي " هضبة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة (د.ت) ج ١ / ص ١٤٨ - ١٤٩ يقول شارل باللا في السياق نفسه مؤكداً كلف الجاحظ بالجدل " إننا عندما نقرأ فصلاً كبيراً كالمنظرة بين الكلب والديك الذي شغل جزءاً كبيراً من كتاب الحيوان نشعر مكتئبين بأن للجاحظ حياً بالجدل العقلي " الجاحظ ص ١٤ .
- ١٩) هذا ما عناه حمادي صمود بقوله : " إن كان الجاحظ يبحث في هذه النصوص عن مبدأ ملائمتها لهذه القضية الأساسية التي تشغله شغلاً كاملاً لأنها تمكنه من أن يبرهن على إكساب العالم المعنى (la sémiotisation du monde) " القوانين البلاغية ومقولة الجنس الأدبي ص ٣١٠ .

- (٢٠) الحيوان ج ١ ص ١٣ .
- (٢١) الحيوان ج ١ ص ١١٤ والملاحظ يعيد هذا الشاهد مع بعض تعديلات في مفتاح الباب الذي عقده للقول في أجناس الذبّان حيث قال " أوصيك أيها القارئ وأيتها المستمع المنصت المصيحخ ألا تحقر شيئاً أبداً لصغر جثته ولا تستصغر قدره لقلة ثمن ثم اعلم أن الجبل ليس بأدلاً على .. من الحصة والفلك المشتمل على عالمنا هذا بأدلاً .. من بني الإنسان وأن صغير ذلك ودقيقه لعظمته وجليله " الحيوان ج II ص ٤٦٣ .
- (٢٢) المصدر نفسه : ج I / ص ١١١ .
- (٢٣) المصدر نفسه ص II / ص ١١٢ .
- (٢٤) المصدر نفسه ص II / ص ٢٥٦ .
- (٢٥) انظر باب القول في أجناس الذبّان وفي الشاهد الذي أوردناه منذ قليل وانظر أيضاً " باب القول في الغربان " الذي قال في صدره " نذكر على اسم .. جهل القول في الغربان والأخبار عنها وعن غريب ما أودعت من الدلالة واستخزنت من عجيب الهداية " ج II / ص ٥٠٠ .
- (٢٦) حمادي صمود : " التفكير البلاغي عند العرب " ص ١٣٨ .
- (٢٧) انظر كتابه " في نظرية الأدب عند العرب " النادي الثقافي بمكة : ١٩٩٠ " فصل " المفاضلة بين الشعر والنثر في التراث العربي ودلالاتها " .
- (٢٨) " الحيوان " ج II ص ٥٤ .
- (٢٩) المصدر نفسه : ج II / ص ٥٥ .
- (٣٠) المصدر نفسه : ج I / ص ٥٦ .
- (٣١) حمادي صمود : " التفكير البلاغي عند العرب " ص ١٥٨ .
- (٣٢) " الحيوان " ج I ص ٣٠ .
- (٣٣) المصدر نفسه ج II ص ٢٥٨ .
- (٣٤) شارل باللا " الجاحظ " ص ٣٧٥ .
- (٣٥) " الحيوان " ج I ص ١٧٧ .
- (٣٦) حمادي صمود : " في مقرونية الشعر الحديث " مجلة علامات عدد ٢٢ - ١٩٩٦ ص ٣٦ .
- (٣٧) " الحيوان " ج I ص ٣٠ .
- (٣٨) " البيان والتبيين " تحقيق عبدالسلام محمد هارون مكتبة دار الهلال ببيروت ١٩٨٩ ج I ص ٨٢ .

وجود المعنى في مؤلفات الجاحظ

- (٣٩) ولعله لهذا السبب جعل الجاحظ في الحيوان هذا النوع دون الأنواع الأخرى انظر "الحيوان" ج I / ص ٣٠ .
- (٤٠) لقد ذكر حمادي صمود أن الثنائي التقابلي النطق / الصمت كان " من المسائل التي شغلت أبا عثمان واستأثرت بنصيب هام من جهده " وانتهى إلى الوقوف على وجهين للمسألة وجهاً بلاغياً وآخر سياسياً دون أن يجاوز ذلك إلى هذا الوجه الثالث . انظر " التفكير البلاغي عند العرب " ص ١٧٥ / ١٨٢ .
- (٤١) " البيان والتبيين " ج I ص ٨٦ .
- (٤٢) المصدر نفسه ج I ص ٨٢ .
- (٤٣) المصدر نفسه ج I ص ٨٢ .
- (٤٤) انظر رسالة " حج النبوة " ضمن رسائل الجاحظ تحقيق عبدالسلام محمد هارون دار الجيل بيروت ط ١ : ١٩٩١ ج II ص ص ٢٢١ - ٢٨٢ .
- (٤٥) " البيان والتبيين " ج I ص ٦٥ .
- (٤٦) " البيان والتبيين " ج II ص ١١٢ .
- (٤٧) انظر عبدالله صولة في تقديمه كتاب " مصنف في الحجاج - الخطابة الجديدة " ضمن كتاب " أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغريبة من أرسطو إلى اليوم " إشراف حمادي صمود ، منشورات كلية الآداب منوبة تونس ١٩٩٨ ص ٢٩٨ .
- (٤٨) " الحيوان " ج ٧ ص ٢٥٩ .
- (٤٩) انظر رسالة الجاحظ الموسومة " بفضيل النطق على الصمت " ضمن رسائل الجاحظ ج II ص ص ٢٢٩ - ٢٤٣ .
- (٥٠) " البيان والتبيين " ج I ص ٨٢ .
- (٥١) المصدر نفسه ج I ص ٨٢ .

